الهولاكيون الجدد يغتالون المتنبي

محمد عبد الله

لم يكن باعة الكتب يعرفون ان الهولاكيين الجدد لهم بالمرصاد في تلك الظهيرة يوم الاثنين الخامس من آذار وهم يدفعون بالموت الزؤام نحو الكتب والبنايات والباعة، ليعلنوا عن انبثار كل شيء من شارع المتنبي، وتختلط الكتب بالأجساد وتتداخل جدران المحال والبنايات هناك. لقد اعلن هؤلاء القتلة عن افلاسهم الخلقي، وعبروا عن دناءة التوجه لديهم، بعملهم الاجرامي هذا، الذي اغتال هذا الشارع الممتد إلى سنوات وسنوات في العمق الثقافي، وهو الحاضنة لمعظم مثقفي العراق.

وهذا الشارع شكل علامة مميزة في التاريخ الثقافي العراقي، وفي تسعينيات القرن الماضي، كان يمثل عرساً ثقافياً حقيقياً ولاسيما في ايام الجمع اذ كان يلتقي فيه المثقفون العراقيون، ويتبادلون نتاجاتهم الابداعية ويناقشون شؤون الابداع والوضع السياسي في البلد، الذي كانت تباشير الانهيار بادية عليه. وانتقل هؤلاء المثقفون من مقهى حسن عجمي إلى مقهى الشابندر الذي كان يضج بهم ويقع في نهاية الشارع قريباً من بناية القشلة. واصبح لعدد من المبدعين العراقيين يبيعون الكتب الخاصة بهم، لسد احتياجات عوائلهم. اما مزاد نعيم الشطري فكان هو الآخر، يطرز الشارع بتجمع القراء والأدباء امام الدكان الصغير، الذي اتخذه مزاداً للكتب التي ينادي ببيعها بصوته الجهوري المعروف. وبعد التغيير السياسي الذي حصل بعد نيسان عام ٢٠٠٣، ظل الشارع على حاله، ولم يتخل عنه رواده، وكانت تحليلات الوضع الجديد، وانتقادات الحالات السلبية يأتيان عبر المتواجدين هناك، وهم يقرأون الصحف والكتب الجديدة التي كانت تصل بسرعة غير متوقعة، واستمر هذا الوضع، وهذا التواجد، وهذه اللقاءات لغاية حزيران من العام الماضي، عندما اعلنت حكومة المالكي ان يكون يوم الجمعة من كل اسبوع، يحظر فيه التجوال، مما اضطر الكثير من الباعة، إلى غلق محالهم في هذا اليوم الذي بات عبئاً عليهم وعلى رواد الشارع، الذين توزعوا على ايام الاسبوع في ارتيادهم لمكانهم المألوف هذا.

لقد فعلها الهولاكيون الجدد، وذبحوا الشارع من الوريد إلى الوريد، مثلما فعلوا مع الأسواق ودور العبادة والأفران والمخابز والمارة وزوار العتبات المقدسة.

ان التاريخ يكتب اسماء هؤلاء الشهداء بحروف من نور في الوقت الذي يدين القتلة احفاد هولاكو!

في شارع المتنبي

امتزجت دماء باعة الكتب مع الحروف

كتابة وتصوير :محمد شفيق

في يوم الاثنين الخامس من آذار الحالي، توقفت الساعة عند الحادية عشرة والنصف وتعطلت لغة الكتاب، وتفحمت اجساد باعة الكتب، واحترقت الجدران، وتهاوت السطوح وانهارات البنايات، ولم يبق من شارع المتنبي غير اكوام الكتب المحترقة، وتحتها اجساد الباعة، او بقايا هذه الاجساد، ربما يد مبتورة، او رأس مهشم او جسد مشوه وسط دخان صعد الى اعالي السماء والسنة النار المستعرة. أصدقاء الباعة ورجال المطافئ يبحثون بمعاولهم عن بقايا هؤلاء الاصدقاء الذين كانوا يمتلئون بحب الكتاب، والحرف، والقلم. هؤلاء الذين يؤمنون بأن الدنيا يغيرها نحو الأحسن والأفضل كتاب، وليست طلقة او بندقية او سيارة مفخخة. نعم هؤلاء كانوا يعرفون طريق الحياة من أين يبدأ، لقد ارادوا الاستمرار في عملهم وايمانهم هذا، وهم يخرجون من بيوتهم ليحطوا في دكاكينهم الصغيرة او الكبيرة، او فوق بسطياتهم التي هي كل ما يملكونه من هذه الدنيا، ويتصفحوا وجه الوطن الجريح، عبر كتاب الف ليلة وليلة او احد تفاسير القرآن، او كتب البلاغة والنقد الحديث والقديم او عبر اشراقات القصة والرواية والسيرة والتاريخ او البحث عن جذور متأصلة في الأرض، في تاريخنا البابلي والآشوري والكلداني، لقد ارادوا كل ذلك، وهم يحدقون في عيون زبائنهم المعلقة بتلك الكتب التي اصفرت اوراقها.. هكذا كان عدنان سلمان وهو يدقق في قوائم الكتب، واسماء الذين اعطاهم الكتب، ربما بالتقسيط المريح، ربما اعارهم اياها، ولكن لم يكن يدري هو او سواه ان الموت يأتيهم مغلفاً بأحقاد تصدأت قلوب حامليها، ليعلنوا عن دناءة ما بعدها دناءة، وخسة وعار.. فانفجر الشارع وتعالى الدخان، وصعدت الارواح الى ربها!

كيف حصل الحادث؟!

كريم حنش بائع الكتب الناجي من الموت، باصابة في رأسه يقول: لا أدري كيف حصل الحادث، لكني شعرت بأني تحت انقاض مكتبتي، سحلوني، بعد ان ازاحوا الكتب والتراب، وعولجت في مستشفى الكندي العام. كان المشهد مرعباً، ان تتنفس وفوقك مئات الكتب والتراب، وبقايا جدار المكتبة، شعرت بأن الحياة جميلة برغم كل شيء حينما انقذوني، الذين سارعوا الي والى سواي من الناجين.

❖ هل تعود الى السوق ثانية؟

- نعم سأعود وهمتي ستكون اقوى ان شاء الله، لانهم يريدون تعطيل الحياة عندنا، وهذا بالتأكيد لن يحصل. وهنالك مسألة اخرى وهي ان هذا الشارع اصبح مثل بيوتنا!

واضاف وهو يبكي بحرقة ذاكراً اسماء الشهداء، اولاد محمد الخشالي وهم أربعة، استشهد عدنان سلمان وعامل المكتبة الذي كان معه احمد، واستشهد علي حسين الدراجي صاحب مكتبة النبأ وعامله ضرغام واستشهد محمد صاحب مكتبة النهضة واصيب نبيل حياوي صاحب المكتبة القانونية بجروح خطرة واستشهد ابنه واثق. وكذلك استشهد عبد شندي وماجد ومحمد عبد الجليل وحسين عبود وقحطان الربيعي وجرح خالد حسين بجروح طفيفة.

حدثنا محمد سلمان وهو بائع كتب في شارع المتنبي، لم يكن موجوداً ساعة الحادث وهو يبكي: هذا شقيقي عدنان (وهو يومئ الى جثة او بقايا جثة متفحمة ومغطاة) منذ يومين وانا ابحث عنه في الطب العدلي ومستشفيات بغداد، واخيراً عثرت عليه متفحماً تحت انقاض المكتبة. وظل يردد: ماذا فعل عدنان والبقية الذين استشهدوا، كي يتحولوا الى فحم أسود مقطعي الاوصال؟!

كنا المنظر مؤلما، بقايا جثث هنا وهناك، مغطاة بكاربونات، او موضوعة في بطانيات، وهي بانتظار ذويها.

في وسط شارع المتنبي، هنالك حفرة بعمق متر، يبدو ان السيارة المفخخة انفجرت فيها، كانت فيها انقاض لحديد ابواب وشبابيك المحلات تجمهر الناس حولها، احد المتواجدين هناك قال: وضع الانتحاري سيارته هنا، وفجرها.

اما نوع السيارة التي انفجرت، فقد تضاربت الآراء حولها، منهم من قال: انها سيارة صالون، ومنهم من قال: انها سيارة بيك آب.

ماذا تبقى من مقهى الشابندر؟

لم يكن منظر المقهى، بأفضل من منظر المحلات والطبقات العليا من البنايات في الشارع. لم يكن هنالك من وجود لصور عادل قاسم التي كانت تزين الجدران، وصور الملوك وبغداد القديمة ولا هنالك من وجود للأركيلات او الكنبات او المناضد بل هنالك جدران، لطخها سواد الحريق المشتعل بالسوق، ومكان مقفر وموحش. حارث محمد العزال ابو عرب احد رواد هذا المقهى الذي كان يدخن الاركيلة فيه قال بألم وحسرة: لقد وصلوا الى العلم ووصلوا الى باعة العلم، لكنهم لن يستطيعوا ان يغيروا الحياة، ويعودوا بها الى الوراء، صحيح انهم احرقوا الكتب وشارع المتنبي لكنهم لن يحرقوا الحياة.

انا من محبي هذا الشارع الذين زودوني بالاعلام العراقية والقرطاسية والكتب التاريخية ومنها سيرة الزعيم عبد الكريم قاسم التي كنت ابيعها في الفرات الاوسط، وفقدت في هذا الحادث اصدقاء اعزاء ومنهم السيد علي الحيدري وعدنان السميدري وكاكة علي صاحب مكتب سالار لبيع القرطاسية.

لا يوجد امن لأسباب تتعلق بالاحتلال، لان الاحتلال هو السبب الرئيس في عدم استتباب الامن.

علاء سالم احد رواد السوق قال: انهم يستهدفون التاريخ والثقافة والعلم والحياة. بما ان الكتاب هو الحقيقة غير المزيفة، فانهم يكرهون الحقيقة.. الحياة تستمر بارادتنا لاننا نقود الحياة ونحب الحياة.

منذ سنين ارتاد هذا السوق مع شقيقي ضياء سالم القاص والكاتب الدرامي المعروف وهذا السوق يمثل ذاكرة حية ويمثل عمق التاريخ العراقي. هولاكو لم يستطع بجبروته وهو يرمي الكتب في نهر دجلة ان يغير مجرى التاريخ فهل يستطيع هؤلاء الاقزام! اعداؤنا التكفيريون والاحتلال مرة يفجرون المساطر واخرى المطاعم والان شارع المتنبي.

اما حسن كاظم صاحب كشك في ساحة النصر فقال: بين يوم وآخر اذهب إلى شارع المتنبي لأتسوق لمكتبي، تسوقت من مكتبة النبأ وظللت ادور في السوق حتى وصلت إلى بداية شارع المتنبي وحصل الحادث. لا أعرف كيف نجوت!! المهم نجوت، والذي شاهدته كان الجحيم بعينه: نار ودخان وسيارات محترقة واجساد تتلوى من شدة الحرائق.

سليم الشيخلي، مثقف وباحث قال: تفجير السوق صورة من صور الارهاب الموجه إلى المثقف العراقي، لكي يتوقف عن اداء رسالته الانسانية.

احرقوا الكتب وقتلوا الباعة، لكنهم لن يستطيعوا ان يغيروا مجرى الحياة الصحيحة لأنهم على باطل ونحن على حق. اصحاب الضلالة هذه هي طرقهم للنيل من الثقافة ومن الحياة.

بدور مرهج الجراح، مدرسة في معهد الفنون الجميلة قالت: كل يوم خميس أذهب إلى شارع المتنبي، لأحصل على بعض الكتب التي احتاجها.

ولكن للأسف حصل ما لم نكن نريد ان يحصل، وهو ان الشارع تهاوى واندثرت معالمه الجميلة، واحترقت الكتب، ولم يعد فيه شيء. انهم استهدفوا الثقافة بعد ان نالوا من الأسواق والمدارس ودور العبادة، انهم على وهم اذا كانو يعتقدون تغيير الحياة نحو الدرك الأسفل. الحياة لن تتوقف وتسير برغم كل شيء.

شيء من تاريخ الشارع.

بسبب اهمية هذا الشارع كونه حاضنة للثقافة والابداع اسماه الملك فيصل الاول باسم شارع المتنبي، تثمينا لدور الشاعر الكبير المتنبي في الشعر العربي، ويمتد تاريخ هذا الشارع الى العصر العباسي اذ كان يسمى بدرب زاخا وهي مفردة آرامية. وكان مشهورا بالمؤسسات الثقافية والدينية ومنها مدرسة الامير سعادة الرسائلي ورباط ارجوان (أي تكية ارجوان) وفي العهد العثماني سمي بشارع (الاكمك خانة) أي المخبز العسكري.

من الذين عملوا في هذا الشارع عبد الرحمن افندي اذ كان يبيع الكتب في المزاد عام ١٨٩٠, وفي عام ١٩٠٠ كان الملا خضير يبيع الكتب والمجلات في الشارع وبعد وفاته جاء ابنه عبد الكريم خضر واسس مكتبة المشرق.

واسس نعمان الاعظمي عام ١٩٠٥ المكتبة العربية ومعها مطبعة كبيرة، وفي عام ١٩١٤ اسس محمود حلمي المكتبة العصرية.

وفي عام ١٩٢٠ اسس شمس الدين الحيدري المكتبة الاهلية واخذ ينشر كتب مؤسسة فرانكلين.

وفي عام ١٩٣٢ اسس حسين الفلفلي مكتبة الزوراء.

واسس قاسم محمد الرجب مكتبة المثنى، وسميت بالمثنى تيمنا بنادي المثنى القومي، وتعامل مع جميع دور النشر المصرية واعاد طبع الف ليلة وليلة والمواقف والمخاطبات للنفري.

وهنالك العشرات من الذين اسهموا في نشر الثقافة، في هذا الشارع المهم منهم محمد جواد حيدر صاحب مكتبة المعارف، وعلي الخاقاني صاحب مكتبة النجاح وعبد الرحمن حسن حياوي صاحب مكتبة النهضة.

ومما يذكر ان عبد الحميد الزاهد احد رجالات ثورة العشرين كان يبيع الكتب بالمزاد في هذا الشارع انذاك.

البداية...

يعود الشارع من جديد، وتعود الكتب، والشهداء يكونون شموعا في واجهات المحال التي احترقت، سيقولون للذين يأتون بعدكم، اكملوا المشوار، عيوننا ترنو اليكم، قلوبنا تهفو لرؤية عملكم من جديد، امسحوا بأيديكم الطاهرة اغلفة الكتب، وازيحوا الغبار عن الحروف ورددوا في البدء كانت الكلمة، ولم تكن الطلقة، او المتفجرات في البدء كان الخير والاشجار والورود، في البدء لم تكن الحرائق ولم تكن السكين.

سيعود كل شيء لوضعه الطبيعي، ويبقى اسم المتنبي يطرز الشارع من البداية وحتى النهاية، مثلما غدر قطاع الطرق بالمتنبي، غدروا باصحابه وشارعه، بقي المتنبي وتلاشى تاريخ قطاع الطرق. اليوم ايضا يتلاشى من فجر الشارع، ويبقى الشهداء والشارع والكتب في ذمة الحياة!.

الشعر ينهض من الحُطام

يلتقي في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم نخبة من الشعراء العراقيين بين حطام شارع المتنبي . الشعراء سيقرأون قصائدهم والدعوة مفتوحة للجميع.

شيء من التاريخ

شارع المتنبي..مكتبات وصحافة

المدى الثقافي

كل شارع وله شخصيته وملامحه التي تميزه ، وقد تتحدد ملامح الشارع بالمارة فيه ، أو ما تحويه طرقاته من محال تجارية تصبغ رائحته بعطر مميز، يجعلك كلما استنشقته تذكرت مرورك به.. ومن أكثر الشوارع التي اشتهرت بشخصيتها المتميزة كان شارع المتنبي ببغداد..

ويعد شارع المتنبي المحصور بين نهر دجلة وشارع الرشيد، مركزا لتجارة الكتب في العاصمة العراقية بغداد، وقد أطلق عليه خلال الحكم العثماني اسم (الاكمكخانة) وبعني (المخبز العسكري) وقد كان هذا الشارع في ثلاثينيات القرن العشرين مقرا لعدد من الصحف العراقية منها (الرأي العام) للجواهري الكبير و (الحضارة) لمحمد حسن الصوري و(الانسانية) لكاظم السماوي وقبلها كثيرات التي يمكن مشاهدتها من أحد المقاهي الموجودة فيه.

ويحمل الشارع الآن اسم الشاعر العباسي الكبير (المتنبي).

شارع الثقافة

تاريخ الشارع مع الكتب يعود إلى العصر العباسي الذي بدأ في القرن التاسع، وتزايدت فيه أعمال التأليف والترجمة للكتب العلمية وازدهر خلاله الشعر العربي في بغداد، بالإضافة إلى الفنون والآداب الأخرى.

وغالبية محال بيع الكتب الموجودة في الشارع صغيرة الحجم، ويتركز أغلب نشاطها يوم الجمعة، حيث ينشر الباعة الكتب العربية والانجليزية على حصير فوق أرصفة الشارع المتربة والمتهدمة، ليقوم الجمهور بالاطلاع عليها وشرائها، ليتحول شارع المتنبي إلى سوق مفتوح للكتب في قلب بغداد.

ويحكي (نعيم الشطري) صاحب أشهر مكتبة في شارع المتنبي عن قيامه بمزاد للكتب كل يوم جمعة، يبيع خلاله الكتب النادرة، ومن بينها كتب منع نظام الرئيس العراقي صدام حسين تداولها، مثل قصائد الشاعر العراقي الشهير محمد مهدي الجواهري وغيره، ويقول (الشطري) :"قبل ١٥ سنة جاءتني فكرة تأسيس مزاد للكتب القديمة والحديثة، فأسسته يوم الجمعة قبل ١٥ سنة، ولاقيت تشجيعاً من العلماء وخيرة المثقفين العراقيين، وبدأ المزاد على كتاب (للجواهري) بنحو ٤٥٠٠ دينار عراقي أو ما يعادل ثلاثة دولارات أمريكية."

وبسبب عشقه للكتب باع (الشطري) مكتبته في البصرة بجنوب العراق، وجاء للعيش في بغداد للعمل بتجارة الكتب منذ عام ١٩٦٣,

معاناة المتنبي

منذ عام ١٩١٧ بدأ شارع المتنبي في الازدهار كمركز رسمي لبيع الكتب في وسط بغداد، وكان باعة الكتب يصطفون على جانبيه لعرض أفضل المطبوعات في الشرق الأوسط. ولعقود كان الشارع أحد المراكز الرئيسية للحياة الفكرية في العراق، واعتاد المفكرون ورجال الدين وأساتذة الجامعات والعراقيون العاديون التجمع في الشارع لمناقشة القضايا وتبادل الأفكار.

وجاءت سبعينيات صدام، وتم سحق الحياة الفكرية في العراق ما أدى إلى قيام أصحاب المكتبات في شارع المتنبي ببيع الكتب سرا.. وكان هناك مخبرون سريون يبلغون السلطات بأي كلمة يتفوه بها معارض في مقاهي الشارع..

كان الشارع في هذه الفترة يخضع لرقابة الأمن العام، الذي كان يعمل على ضمان حظر تداول كتب تتناول التاريخ الحديث للعراق، لذلك كانت الكتب التي حظرها حزب البعث الحاكم تتداول بشكل سري ، وكان صاحب أي مكتبة لا يعطيها لأي زبون يطلبها إلا إذا كان يثق به. وكان يتم تهريب الكتب الممنوعة والتي غالبا ما كانت تطبع في بيروت وتهرب إلى العراق عبر الأردن وسوريا وتركيا..

وبعد الغزو العراقي للكويت والعقوبات الاقتصادية التي فرضتها الأمم المتحدة على بغداد عام ١٩٩١ تراجع الاقتصاد العراقي، وكان لذلك أكبر الأثر على شارع المتنبي، حيث اختفت المجلدات والمطبوعات الفاخرة، وتحول الشارع إلى سوق للكتب المستعملة.. بعدما باع الناس كل ما لديهم من أشياء وكتب للحصول على أموال لشراء قوت يومهم.

عشق لا ينضب

ولكن آثار عشق العراقيين للقراءة والكتب ظلت موجودة بوضوح حتى اليوم في شارع المتنبي، حيث توجد مطبعة يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر تحولت اليوم إلى مقهى يرتاده أصحاب الفكر والقلم. يقول (محمد كاظم الخشالي) صاحب هذا المقهى المسمى (الشابندر) : "شارع المتنبي هو الشريان الثقافي للمواطن العراقي الذي يمتد منه والى الأمة العربية بكاملها، حيث تروج جميع الكتب الأدبية الدينية والثقافية والكتب التي تصدر في جميع أنحاء العالم وعلى الخصوص العربية منها."

ورغم ما تعرض له هذا الشارع العلامة في تاريخ الثقافة العربية، إلا أنه ما زال مصرا على القيام بدوره، حتى لو اضطر رواده للبحث عن الكتب وسط أكوام التراب وعلى الأرصفة...

دمر العدوان على شارع المتنبي جزءاً كبيراً من مقهى الشابندر وعدداً من المكتبات التي استشهد اصحابها والرواد الذين كانوا يرتادونها.